العرب
الأحد 2020/05/17
السنة 42 العدد 11705

بعودة الموت الأسود هل يعيد التاريخ نفسه؟

السفر سبب الأمراض الجديدة ووسيلتها لإثارة الرعب

مع انتشار فايروس كورونا المستجد وتأثيره الكبير على مختلف بلدان العالم، ومع تزايد تأثيره العميق على حياة المجتمعات والأفراد، صار الجميع يبحثون عن تاريخ الفايروسات ويقرأون عنها بنهم في المقالات والكتب والدراسات وحتى في الروايات والأفلام وغيرها، حيث قدمت العديد من الأعمال الفنية والأدبية والكتب التي أرّخت للأوبئة وانعكاساتها السياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية عموما.

هيثم حسين
كاتب سوري

يستعيد المؤلفان البريطانيان سوزان سكوت وكريستوفر دنكان في كتابهما المشترك "عودة الموت الأسود: أخطر قاتل على مر العصور" تاريخ عدد من الأوبئة والطواعين التي اجتاحت أوروبا في القرون الماضية، وأودت بأعداد كبيرة من البشر، وشكّلت تهديدات خطيرة على العالم.

يشير المؤلفان في كتابهما (منشورات هنداوي، ترجمة فايقة جرجس حنا، القاهرة) إلى أنه عادة ما تنسب طواعين القرن العشرين الناشئة إلى أصول حيوانية، وهنا يكمن مفتاح نجاحها. ويلفتان إلى أنه عندما بدأ البشر أول ما بدؤوا العيش معا على مسافات قريبة في المدن، وما بينها من طرق تجارية مزدحمة، وجدت الظّروف المثالية تماما للظهور الحتميّ للأمراض الفتّاكة حيوانية المنشأ.

الرعب من المرض

يذكر الكاتبان أن العالم يزداد تقاربا في القرن الحادي والعشرين، وأنه عندما تنخرط أعداد كبيرة من الأشخاص في السياحة البيئية أو يدخلون إلى الغابات المطيرة لقطع الأشجار، فإنهم يحتكّون بالآلاف من الفايروسات التي لم يسبق لها أن اقتربت من الإنسان من قبل. ومع أن الأغلبية العظمى من هذه الفايروسات لن تستطيع تخطّي الحاجز النوعي، فإن القليل منها سوف يتمكن من ذلك، ويلفتان إلى أنه مع التزايد اللانهائي لأعداد المسافرين بسرعة كبيرة من مكان إلى آخر، أصبح الموقف حرجا.

ويشير الكاتبان إلى أنّه على مدار أكثر من 600 عام، وكلمة "طاعون" تبث الرعب في القلوب، و تثير سيناريو مرعبا لمرض شديد العدوى لا يمكن ردعه، ولا علاج له، ولا مفرّ من أن يموت صاحبه ميتة مؤلمة، وتراهما ينوّهان إلى أنه على الرغم من أنّ لدى البشر حاليا، معرفة أكبر من أي وقت مضى بالمرض، وعددا من اللّقاحات والعلاجات الفعالة، وخبراء متمرسين في علم الأوبئة والبيولوجيا الجزيئية، ومجموعة من الاختبارات التشخيصية والتقنيات الحديثة التي من شأنها تحديد تسلسل جينوم أي فايروس جديد في خلال أشهر من ظهوره الأول، إلّا أنّ الرعب من أن يظهر مرض جديد، ربما طاعون آخر، يهدد الحياة البشرية، يظلّ بنفس القوة التي كان عليها في ما مضى.

في فصل بعنوان "إنجلترا تحت الحصار" يتحدث المؤلفان أنّه في كل وباء طاعون ظهر في إنجلترا وصلها بالضرورة عن طريق القوارب المحملة بالبحارة والتجار والمسافرين المصابين، الذين وفدوا عموما عن طريق القنال الإنجليزي وبحر الشمال، وإن انتقل المرض في بعض الأحيان جيئة وذهابا بين تشستر وأيرلندا، ويقولان إنّه

القوارب قد تتحول إلى توابيت (لوحة للفنان سمير الصفدي)

ما إن بدأ الوباء الجديد نشاطه مثيرا فزع المواطنين، فإنه كان يصبح على استعداد للمضي قدما وبدء المزيد من نوبات التفشي على نطاق أوسع.

وعن طاعون لندن العظيم يكتب المؤلفان بأن من بين كل ابتلاءات الطاعون في أوروبا، نعرف عن "طاعون لندن العظيم"، الذي بدأ عام 1665، أكثر مما نعرف عن أي طاعون آخر. وأن الطاعون كان هائجا في هولندا عام 1664 ووجّه تحذيرا مسبقا إلى مفوضي إدارة الجمارك لضمان عدم دخول لاجئين مصابين إلى أرض بريطانيا. لكن لم يكن هذا التحذير مجديا، فقد انتشر الوباء رغم كل شيء.

> المؤرخة الاجتماعية سوزان سكوت والباحث كريستوفر دنكان يحكيان تاريخ الأوبئة منذ القدم ويفسران طريقة تطورها وعملها

يتحدث المؤلفان عن آلية عمل البكتيريا والجراثيم، ويذكران أن الإنسان في حرب مع الأمراض المعدية منذ فجر التاريخ، وأنّه حتى عهد قريب نسبيًا، ومع المعرفة المتزايدة بالأسباب الكامنة وراءها وظهور المضادات الحيوية واللقاحات، لطالما كانت معركة من طرف واحد إلى حدّ بعيد. ويقولان إنه بطريقة ما أو بأخرى، تعلم الإنسان اليوم التعايش مع الأمراض المعدية، وأن مستودع أسلحتنا الذي يقاوم الأمراض المعدية يواصل النمو ونكسب بعض المعارك بجدارة، لكن الحرب مستمرة بلا شك.

يصفان العدوى بالصراع، وأنّ كل عدوى هي صراع بين العامل المعدي والعائل: فالطفيل يكافح من أجل البقاء والتكاثر، فيما يشن الجهاز المناعي للعائل ما يشبه دفاعا حربيًا مصمما للعثور على الميكروب وتدميره والتخلص منه. ويؤكّدان أنه ثمة عامل آخر ذو أهمية كبرى للغاية للعوامل المعدية، ألا وهو أنه يتعين عليها الانتقال من إنسان إلى آخر؛ فهذا أمر جوهري في استراتيجية نجاة كافة الأمراض المعدية؛ لأنه في آخر المطاف سوف يتخلص العائل من العدوى أو يموت.

الحرب الجرثومية

أما عن عودة الموت الأسود، فيتساءل المؤلفان ما إن كان البشر قد تعلموا الدرس من تفشي الأوبئة أو لا، ويقولان إنه بصفة عامّة، تدرك السلطات الصحية في كل أنحاء العالم جيدا مخاطر الأمراض الناشئة، وثمة فرق دولية في حالة تأهّب للتعامل مع أي موجة تفشي يبلّغ عنها.

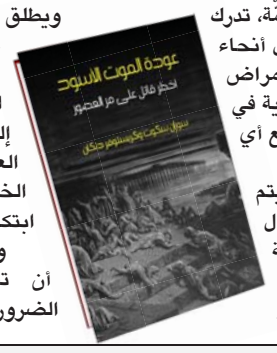

ويؤكدان أنه حالما يتم التعرف على طرق انتقال العدوى وتحديد طبيعة المرض، فسيتعين في الحال اتخاذ تدابير مكافحة وسلامة صارمتين، وأنّ السر يكمن في تحديد فترتي الحضانة وانتقال العدوى، وأنه ينبغي أن تتوافر المساعدة والتعاون الدوليان الكاملان، ولا بد أن تعمل فرق من علماء الأوبئة والأحياء الدقيقة بلا انقطاع على مدار الساعة لتحديد خصائص المرض الجديد، حتى يمكن التنبؤ بانتشار الوباء وعواقبه، وبناء على ذلك تتّخذ التدابير المناسبة، وتراهما يشدّدان على أنّ ثمن السلامة هو اليقظة الأبدية.

يلفت المؤلفان إلى أن الحرب الجرثومية هي بديل القنبلة النووية الرخيص؛ لأن الأسلحة النووية باهظة التكلفة وصعبة النقل وسهلة الرصد.

ويطلق المؤلفان سؤالا تحذيريا عما إن كان هناك ما هو أبشع من الموت الأسود، لينوّهَا بعده إلى أن القوى العظمى في العالم لطالما عملت في الخفاء لعقود عديدة على ابتكار الأسلحة البيولوجية.

ويذكر سكوت ودنكان أن تطوير التكنولوجيا الضرورية كان نتيجة حتميّة للاكتشاف الذي حدث عام 1953 بشأن الكيفية التي يحكم بها الـ"دي.إن.إيه" الوراثة ويتحكم في آلية عمل كافة الكائنات الحية، بدءا من الميكروبات ووصولا إلى الإنسان. أنفقت الحكومات كمًا هائلا من الوقت والمال في سبيل ابتكار طرق لمهاجمة الأفراد في مجموعات وقتلهم من خلال إطلاق كائنات حية فتاكة أو سمومها، وكذلك في سبيل إعداد وسائل للتصدي لمثل هذه الهجمات.

> رغم تطور العلم ما زال هناك رعب من أن يظهر مرض جديد، ربما طاعون آخر، يهدد الحياة البشرية

يشار إلى أن سوزان سكوت مؤرخة اجتماعية متخصصة في علم إحصاءات السكان، وباحثة بكلية العلوم البيولوجية بجامعة ليفربول. وكريستوفر دنكان أستاذ فخريٌ في علم الحيوان بجامعة ليفربول.

THE GREAT PLAGUE: THE MANIAC PRONOUNCING THE DOOM OF LONDON. (See p. 216.)

الطاعون ذكرى سيئة تسافر عبر الزمن

رف الكتب

ولاء يهود فرنسا لإسرائيل

ساهم يهود فرنسا منذ الثورة الفرنسية في تطوير الديمقراطية والعَلمانية، ما عرف بمرحلة الفرنكويهودية. ورغم الاضطهاد الذي لحقهم من حكومة فيشي، ورغم إنشاء دولة إسرائيل، ظلوا متمسّكين بالاندماج، ولكن استقلال بلدان المغرب العربي وهجرة جالياتها اليهودية إلى فرنسا خلق منعرجا أول، فالوافدون الجدد لم يكن لهم نفس ثقافة الاندماج التي ليهود أوروبا الشرقية، ثم كان المنعرج الثاني خلال حرب الأيام الستة، حيث دعت إسرائيل كل يهود العالم إلى مساندتها بغير شروط، فظهرت الفرنكوصهيونية التي اتسمت بالوفاء لبلد المنشأ بالإضافة إلى الوفاء لإسرائيل وسياستها أيا ما تكن، فصارت مؤسسات اليهودية الفرنسية تسعى لإقناع اليهود بأن مصيرهم لم يعد مرتبطا بفرنسا، بل بـ"دولة/أمّة للشعب اليهودي" ذات منحى توراتي عنصري.

ليبرالية تحتية

الليبرالية، التي كانت تعدّ تاريخيا ضامنا للحريات الفردية ضد الاستبداد، صار ينظر إليها اليوم كسلوك خاص بالنخبة، وثقافة حكر على "المنتصرين في العولمة"، وفئات مدينية محظوظة تصم آذانها عن مشاكل الأغلبية.

كيف وصلنا إلى هذا الوضع؟ يتساءل عالم الاجتماع الألماني الشهير يان فيرنر مولر في كتاب "الخوف أو الحرية". ويبين كيف ولماذا فرضت مثل هذه الأفكار نفسها بعد نهاية الحرب الباردة، وكذّبت انتظارات المنتصرين الليبراليين.

واستنادا إلى تأملات المفكرة الأميركية جويت شكلار، يتوقف عند "ليبرالية تحتية" يعتقد أنها يمكن أن تضمن وجودا مستقلا، بعيدا عن الخوف. مثل هذه الليبرالية في رأيه يمكن أن تقدم بشكل غير مسبوق سياسة تقوم على فكرة الأمن، للحيلولة دون ميز. وفي اعتقاده أن ذلك قد يساعدنا على الخروج من الصراع بين نخب ليبرالية وشعبويين.

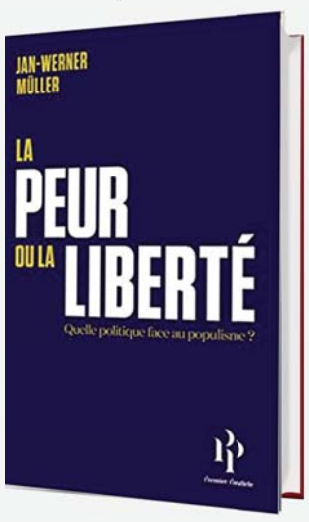

التنقل كحق إنساني

كوسط خرسانات أبراج المدن ما بين الخمسينات والستينات صاغ المفكر الكاميروني أشيل مبيمبي مصطلح "العنفوية"، لوصف العنف السياسي الذي يميز هذا العصر، والنزوع إلى حركة تدمير وإزالة للنسيج الحيّ تمارَس على المخيال والأجساد والأدوات وكل ما هو حيّ. فقد حوّل القرن الحادي والعشرون الإنسانية إلى مادة وطاقة وفضلات، ونفث في الأشياء والآلات أنفاس الحياة.

لقد سبق لمبيمبي، الذي يعدّ من أهم نقاد ما بعد الكولونيالية، أن حلل تواصل "هَرْس" الأجساد السوداء منذ الاسترقاق، ولكنه هنا يتوقف عند صنع إنسانية زائفة عبر العالم، حيث باتت الشعوب والدول تقيم الحواجز حول نفسها لمواجهة المهاجرين، القادمين خاصة من القارة الأفريقية، وتستعبدهم حينا وتتركهم يموتون غرقا حينا آخر، ويلح على حق الناس جميعا في التنقل، لخلق كوسموبوليتية تقوم على المشترك الذي يوحّد ولا يفرّق.